جمالية التشكيل الصوتي في سورة الفجر

دراسة لسانية تطبيقية

م. د. جنان سالم محمد البلداوي

جامعة الإمام جعفر الصادق عليه السلام / كلية الآداب (فرع صلاح الدين)

البريد الألكتروني: : jinan.salem@sadiq.edu.iq

الملخص: عمدتُ في هذا البحث الى دراسة سورة الفجر دراسة صوتية لسانية مختارة بعض مقاطعها معتمدة في هذه الدراسة على الجمع بين علم الأصوات النطقي (phonetics) وعلم الأصوات الوظيفي (phonology)، هادفة منها بيان أثر جرس الأصوات وصفاتها ومخارجها، وكذلك أثر نوع الصوائت، وعددها، ونوع المقاطع في دلالة الكلمة أو المقطع المدروس، أثبت البحث في هذه الدراسة إعجاز جمالية التشكيل الصوتي في القرآن الكريم بما فيه من دقة فن التقابل في صور مقاطع هذه السورة كالتقابل بين ضوء الصباح المشرق وظلام الليل الدامس، وذلك باختيار فونيمات في بنى معينة دون غيرها فضلًا عن اختيار صوائت ومقاطع معينة مناسبة لجو السورة لحكاية القصد الذي يريده تعالى.

الكلمات المفتاحية: التشكيل الصوتي، الدلالة الصوتية، الفونيم، الصائت، المقطع.

Instructor.Dr Jinan Salim Mohammad Albaldawi , Department of Arabic, College of Arts, University of Imam Ja'afar lasadiq/Branch of Salah-Aldin, Balad, Iraq.

E-mail: jinan.salem@sadiq.edu.iq

In this paper, Surat Al-Fajr is studied as a phonetic and linguistic study of some selected passages. This study based on a combination of phonetics and phonology . It aims to show the effect of the timbre of sounds, their qualities and exits, as well as the effect of the type of vowels, their number, and the type of syllables in the meaning of the word or the syllable being studied. This paper proved the aesthetic of phonological creation in the Holy Qur'an, including the accuracy of the art of contrast in the images of the passages of this surah, such as the contrast between the bright morning light and the darkness of the night, by choosing phonemes in certain structures and not others, and certain sounds and syllables are appropriate to the atmosphere of the surah to narrate the intention that the Almighty wants.

Keywords: phonemic formation, phonemic indication, phoneme, syllable.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق حبيب آله العالمين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

لا يخفى إنّ اختيار فونيم ما أو كلمة بنيتْ من فونيمات معينة دون غيرها لا يخلو من قصد يؤمه المتكلم، وبالتالي فإنّ استراتيجية التشكيل الصوتي تتعامل مع اللغة ليس كونها أصوات أو علامات بل تتعامل معها على أنّها طاقة كاشفة عن الصورة التي يريد المتكلم إيصالها للمتلقي، ولا يخفى أيضًا أهمية دراسة الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ولاسيما إعجاز جمالية التشكيل الصوتي الدلالي لحكاية القصد الذي يؤمه تعالى؛ لأجل كل ذلك عمدت إلى اختيار سورة الفجر أنموذجًا محاولة الكشف عن جمالية التشكيل الصوتي فيها وذلك بدراسة بعض مقاطعها في المنظور اللساني في خطة تضمنت أربعة محاور:

المحور الأول: بنية ((وَالْفَجْر)) ويتضمن دراسة:

أولًا: الدلالة المركزية

ثانيًا: الدلالة الصوتية وتتضمن:

١. الدلالة الفونيمية
٢. دلالة الصوائت
٣. الدلالة المقطعية

المحور الثاني: بنية(يَسْرْ) ويتضمن دراسة:

أولًا: الدلالة المركزية

ثانيًا: الدلالة الصوتية وتتضمن:

١. الدلالة الفونيمية
٢. دلالة الصوائت
٣. الدلالة المقطعية

المحور الثالث: جرس الراء (دراسة ايحائية صوتية فيزيائية)

المحور الرابع: نتائج كلية للمقطع المدروس

القسم الأول: بنية ((وَالْفَجْرْ)) * (سورة الفجر: الآية١)

أولًا: الدلالة المركزية:

للوقوف على أثر دلالة الصوت في نص ما ولاسيما القرآن الكريم لابد لنا من الوقوف أولًا على الدلالة المركزية أو المعجمية للبنية المدروسة حتى نتمكن من أثبات الأعجاز الصوتي للقرآن الكريم في اختيار الجرس المناسب للحدث الذي يريد تصويره بدقة.

الفجر: ف ج ر، وهو التفتح في الشيء، والأصل فيه الشقّ، من ذلك الفجر، وهو ضوء الصباح، أو شقّ عمود الصبح، وهو فجران صادق وكاذب، والفجر العطاء والمعروف، ما أكثر فجره، أي: معروفه، والفجر تفجيرك الماء، والفجر الموضع الذي ينفجر منه الماء... ينظر: (الفراهيدي، صفحة ١٠٨:٦) و (ابن فارس، ١٩٩٩، صفحة ٤٧٥:٤)، أمّا عند المفسرين فلهذه المفردة تفسيرات عدة إلا أنّنا اقتصرنا فقط على ما يناسب المقام، ينظر: (الزمخشري، صفحة ١٣٥١:٢)، و (الطبري، ٢٠٠٠، صفحة ٣٩٧:٢٤).

مما سبق يمكن أن نستنتج بأنّ هذه المفردة تدل عمومًا على الانبثاق بعد الانحباس بقوة، يؤيده استعمالها بهذا المعنى لما هو محسوس، وهو انفجار الماء بعد الانحباس وما يحتاج ذلك من قوة، وهذا في الحقيقة مناسب لجو السورة فانبثاق ضوء الصباح الذي ينمي عن بدء حياة جديدة ممتلئة بالنشاط بعد ظلام الليل الدامس الذي يغشاه سكون وهدوء يحتاج إلى قوة، وهذا يشير أيضًا إلى عظمة قدرة الله تعالى في إيجاد الشيء من ضده، فضلًا عن ذلك فإنّ دلالة هذه المفردة على العطاء مناسب أيضا لابتداء السورة بأعظم النعم التي أنعمها الله علينا، وهي شق ضوء النهار وجعله لكسب العيش، وحلول ظلام الليل وجعله للسكون والراحة والاستقرار، وبذا قد وضع تعالى ساعة بايلوجية للإنسان لتنظيم حياته بعدًا عن وقوع الضرر الصحي والاقتصادي الذي قد يحل به.

* فيها قراءات عدة، إلا أنّنا اخترنا القراءة التي كُتب بها المصحف الكريم، ينظر: (عمر و مكرم، ١٩٨٨، صفحة ١٣٧:٨).

ثانيًا: الدلالة الصوتية

((وَالْفَجْرِ))

و ـَ ل/ ف ـَ ج ر

م ص م/ م ص م م

A الفتح	U الضم	i الكسرة	Aa الألف	uu الواو	Ii الياء	م ص مقطع قصير	م صَ طويل مفتوح	م ص م طويل مغلق	م صَ م مديد	م ص م م ممتد
٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١

١. الدلالة الفونيمية

لو تأملنا في لفظة (الفجر) لنجد أنّها ابتدأت بفونيم (الفاء)، وهو صوت أسناني شفوي احتكاكي مهموس، يتمّ نطقه ((بوضع أطراف الثنايا العليا على الشفة السفلى، ولكن بصورة تسمح للهواء أن ينفذ من خلالها، ومن خلال الثنايا، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية خلال النطق بالفاء)) (بشر، ٢٠٠٠، صفحة ٢٩٧)، أمّا كونه مهموس، أي لا تهتز الأوتار الصوتية عند النطق به، فهو يحاكي الجو الذي يسبق(ظهور ضوء الفجر)، وهو آخر الليل لما فيه من هدوء، يؤيده قول ابن سينا: ((الفاء عن حفيف الأشجار)) (ابن سينا، صفحة ٩٧)، فالحفيف فيه هدوء وهمس لا ضجيج، فضلًا عن ذلك فإنّ هذا الصوت ينتج من مرور الهواء باستمرارية نسبية من فتحة الحنجرة دون عائق وعدم انحباسه عند مخرجها، وهذا يحاكي أيضا محاولة الإنسان للتخفيف عن نفسه وتفريغ همومه في ذلك الوقت استعدادًا لبدء يوم جديد يملأه التفاعل، وهذا إنّما لما يتصف به هذا الفونيم من التفشي، ولا ننسى أيضا أنّ الفاء للفصل والشق والتوسع أيضًا، وقد غلب مجيؤها على ذلك في المصادر نحو: فأس الخشبة شقّها، فأي الرأس فلقه، فدع الشيء كسره، فرى الشيء شقه، فقع الشي شقه ... وهذا فيه إيحاء أنّ القوة ملازمة لدلالة هذه المفردة، وهذا ((يحاكي ضرب الأسنان العليا بشيء من الشدة على الشفة السفلى قبل خروج صوت الفاء)) (عباس، ١٩٩٨، صفحة ١٣١)، وهو مناسب تمامًا لجو السورة إذ يحدث في هذا الوقت استعداد لشق ضوء الفجر بمعية شيء من القوة كما أوضحنا.

أمّا فونيم الجيم فهو صوت مجهور انفجاري لثوي حنكي احتكاكي (بشر، ٢٠٠٠، صفحة ٣١١) أمّا كونه مجهور فيراد منه تحرك الوترين الصوتيين عند النطق به، وهذا يحاكي حركة الناس ونشاطهم وسعيهم لعملهم عند الصباح، أمّا مخرجه فمن شجر الفم (المنطقة المحززة في سقف الفم)، حيث يحدث انحباس تام في مجرى الهواء الخارج من الرئتين ثم انفجار فجائي للهواء عند المخرج، وهذا يحاكي انفجار ضوء الصبح الساطع من الظلام الدامس ولأجله أُختير لحاكية هذا الجو صوت غاية من العمق، هذا وإن تسكينه يزيد من قوته ليصف لنا قوة الانفجار الحادث، أمّا الراء فصوت شديد مكرر (متوسط) يقول عنه سيبويه: ((وهو حرف شديد يجري في الصوت لتكريره وانحرافه الى اللام ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه)) (سيبويه، صفحة ٤٣٥:٤) ، ومنهم قالوا هو صوت متوسط بين الشدة والرخاوة (بشر، ٢٠٠٠، صفحة ٢٠٦) ، ويصف لنا ابن سينا جرسه بقوله: ((إنّ الراء عن تدحرج كرة على لوح من خشب من شأنه أن يهتز اهتزازًا غير مضبوط بالحبس)) (ابن سينا، صفحة ٩٦ .٩٧)، وهذا يحاكي تدحرج ضوء الصبح بعد الليل، فضلًا عن ذلك فإنّ هذا التدحرج فيه تكرار الحركة، ولهذا انفردت الراء بصفتها التكرارية عن باقي الأصوات. وهذا يحاكي تكرار هذه النعمة (بزوغ ميلاد يوم جديد) واستمرارها وتجددها إلى ما شاء الله.

ولأجل كل ما تقدّم اختار تعالى للتعبير عن ضوء النهار في هذه السورة هذه البنية المتضمنة تلك الفونيمات دون غيرها؛ وذلك لأنّ كل فونيم له جرس إيقاعي موسيقي يمكن عن طريقه إدراك الكلمة والتمييز بين غيرها في دلالتها، يؤيده تعريف ترنكا له: هو((كل صوت قادر على ايجاد تغيير دلالي)) (عمر أ.، ٢٠٠٦، صفحة ١٧٩). وخلاصة القول : إنّ للفونيم قيمة وظيفية تختلف بحسب الوحدة الصوتية الداخلة فيه لحكاية الجو الذي يُشحن به النص.

٢. دلالة الصوائت

نريد من المصوتات الأصوات الصائتة الألف (ـَ)(a)، الواو المدية (ـُو)(uu)، الياء المدية(ـِي) (ii). و(الفتحة) (ـَ)(a)، والضمة (ـُ) والكسرة (ـِ) (i).

قد اعتنى ابن جني بالإشارة إلى القيمة الذاتية للحركات قائلًا: ((ومن ذلك قولهم للسُلّم مِرقاة وللدرجة مَرقاة، فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقيّ، وكسر الميم يدل على أنّها مما ينقل ويعتمل عليه وبه، كالمِطرقة والمِئزر والمِنجل، وفتحة ميم مَرقاة تدل على أنّه مستقر في موضعه كالمَنارة))(ابن جني، صفحة ١٠٢:٣)، أي كسر الميم يدل على الانتقال وفتحها يدل

على الثبات، وبناء على تقدّم عقدنا هذا القسم لنبين الأثر الوظيفي للحركات في دلالة بنية ((الفجر)).

نلحظ من الدراسة المتقدمة ارتفاع ظهور الفتحة، واقتصار المقاطع عليها، في حين لم تظهر الضمة ولا الكسرة في البنية المقطعية، ولاريب في ذلك إنّ هناك غرضًا جماليًا، فالفتحة صوت متسع منتشر أمامي غير مدور من أوضح الأصوات الصائتة سمعًا، قال أبو الأسود الدؤلي: ((فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين)) (الداني، صفحة ٤:١) أمّا كونه منتشرًا فيراد منه أنّه ينفذ بسهولة وانسيابية في الهواء، وهذا كله مناسب للانتشار السوي لضوء الصباح في الفجر، فضلًا عن ارتياح النفس البشرية عند رؤية اشراقة جديدة ليوم جديد، يؤيده قولهم: ((أمّا الفتحة فيكون اللسان معه راقدًا وممتدًا في الفم في وضع يشبه وضع الراحة)) (عمر أ.، ٢٠٠٦، صفحة ١٥١) أمّا كونه متسعًا أي ممتد ومستطيل ومستمر حتى ينفد فيحاكي اجتهاد الإنسان بالتوسل والدعاء إلى الله تعالى في هذا الوقت لفضيلته عنده تعالى ، ولضمان الاستجابة فيه. أمّا كونه أمامي فإنّ النطق بالمصوت الأمامي أسهل من النطق بالمصوت الخلفي؛ لأنّ الأخير يتطلب جهدًا إضافيًا هو تدوير الشفتين، وهذا يحاكي نظام الحياة الإنسانية إذ العمل يكون سهلًا في النهار؛ لأنّ الإنسان يمارسه بعد أن يأخذ قسطًا من الراحة في الليل بخلاف العمل في الليل فإنّه يستثقله ويراه صعبًا؛ لأنّ الدماغ يعطيه إيعازًا بضرورة التوجه إلى النوم.

٣. دلالة المقاطع

المقطع: هو تتابع من الأصوات الكلامية له حدّ أعلى أو قمة اسماع طبيعية (بغض النظر عن العوامل الأخرى مثل النبر والنغم الطويل)، تقع بين حدين أدنين من الاسماع، وقيل هو نبضة صدرية واحدة أو نفخة هواء من الصدر (عمر أ.، ٢٠٠٦، صفحة ٢٨٤ . ٢٨٥).

أمّا أنواع المقاطع فاختلف الصوتيون عمومًا في تقسيمها، إلا أنّها عمومًا إمّا طويلة أو قصيرة وإمّا مفتوحة أو مغلقة، والقصيرة لا تكون إلا مفتوحة، وكل مقطع انتهى بصامت فهو مغلق (م)، وما انتهى بصائت فهو مفتوح(ص) (أنيس، ٢٠٠٧م، صفحة ١٥٠).

ولو تأملنا في مقاطع الفجر لنجد أنّها مقاطع طويلة فحسب، وهذا يتناسب وطول مرحلة الانتقال من الليل الى الفجر، يؤيده قول دي سوسير : إنّ المقطع هو ((الوحدة التي يؤدي

الفونيم وظيفة داخلها)) (عمر أ.، ٢٠٠٦، صفحة ٢٨٦) وخلاصة القول: إنّ للمقاطع الصوتية دورًا في تلوين الخطاب بألوان مختلفة باختلاف أنظمتها من حيث التكرار والإيقاع وتنوعها أو اتحادها وغير ذلك.

المحور الثاني: بنية ((يَسْرِ))

قال تعالى: ((وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ))

أولًا: الدلالة المركزية

لمّا كان السير هو الذهاب ليلًا ونهارًا اختص السُّرى بسير الليل خاصة، وهو من أسرى يسري، والمعنى: والليل إذا يمضي، أي: حين يمضي، ولو رجعنا إلى دلالتها اللغوية لنجد أنّها تفيد معنى الخفاء، إذ كان أصل استعمالها في السّرى، وهو عرق الشجر دب تحت الأرض، ولوحظ فيه الامتداد مع الخفاء، فاستعمل في الليل لما في السير في الليل من الخفاء، (الفراهيدي، صفحة ٢٩١: ٧)، و(الزبيدي، صفحة ١١٥:١٢) وقد جاء هذا في القرآن الكريم: ((سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)) (سورة الإسراء: الآية١).

ولو أنعمنا النظر في عظمة الإعجاز القرآني في هذا النص لنجد أنّه انطوى على ((تجسيم لليل وتشخيص وفاعلية بحيث يتمثل كائن حي يسري، وفيه كذلك إلباس للحدث بزمانه، فالليل نفسه يسري كما يسري فيه كل سار بليل)) (بنت الشاطئ، صفحة ١٣٣)، وهذا التشخيص لون من ألوان التخييل الذي يقوم عليه التصوير عند سيد قطب، ((يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية، تشمل المواد والظواهر والانفعالات الوجدانية، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية، تشارك فيها الآدميين، وتأخذ منهم وتعطي، وتتبدى لهم في شتى الملابسات، وتجعلهم يحسون بالحياة في كل شيء تقع عليه العين، أو يتلبس به الحس، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه، في توفز وحساسية وإرهاف .... هذا هو الليل يسري ((وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ)) فتحس سريانه في هذا الكون العريض وتأنس بهذا الساري على هيئة واتئاد)) (قطب، ٢٠٠٤، صفحة ٧٣)، في حين إنّه عند البلاغيين إسناد مجازي بعلاقة الزمان، أي وقت السُّرى.

ثانيًا: الدلالة الصوتية

وَ ل/ل َ ي/ل ِ/ إ ِ/ذ ُ/ يـ َ س ر

A	U	i	aa	uu	ii	م ص مقطع قصير	م صَ طويل مفتوح	م ص م طويل مغلق	م صَ م مديد	م ص م م ممتد
٣	٠	٢	١	٠	٠	٢	١	٠		١

١. الدلالة الفونيمية:

بعد أن وقفنا عند دراسة وضوح ضوء الفجر سنقف عند دراسة مقابله وهو ظلام الليل الدامس، وقد حكت أجراس فونيمات هذه البنية ذلك الجو بنحو دقيق، فالسين: صوت اسناني لثوي إحتكاكي مهموس، ينطق بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدمته باللثة العليا ووجود منفذ ضيق للهواء فيحدث الاحتكاك ويرفع أقصى الحنك حتى يمنع مرور الهواء من الأنف ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به، (بشر، ٢٠٠٠، صفحة ٣٠١)، وهذا ما بيّنه ابن سينا في معرض كلامه عن منشأ تولّد حرف السين قال: ((السين عن مسّ جسم يابس جسمًا يابسًا وتحركه عليه حتى يتسرب ما بينهما هواء عن منافذ ضيقة جدًا)) (ابن سينا، صفحة ٩٥)، وتسرب الهواء بهذا الشكل ولّد فيه همس، والهمس يدل على خفاء صوتٍ وحسٍ. منه الهمس: الصوت الخفي، وهمس الأقدام أخفى ما يكون من وطء قدم، والهمس: وسوسة الشيطان، يقال همس الشيطان، والهمس صوت رقيق يُسمع من الماء الجاري (ابن فارس، ١٩٩٩، صفحة ٦٦:٦)، و (جرجس، ٢٠٠٦، صفحة ١٤٦ و٢٤٠و ٢٤٧)، وهذا مناسب لجو الليل المتسم بالهدوء المقابل لشدة حركة الصباح، أي الهدوء في الحركة والسير، وكذلك الكلام، لأجل ما تقدّم استعمل الله تعالى هنا يسر في حين استعمل في مواضع أخرى (سجى) و(عسعس) و(أدبر)... فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ (المدثر: ٣٣) ، ﴿وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ﴾ (التكوير:١٧)، ﴿وَاللَّيْلِ إذا سَجى﴾ (الضحى:٢)، إذ لكل استعماله في جوه المناسب. أمّا دلالته على الحركة فالملفت للنظر إنّ دلالة السين في الكتابات النبطية ((ترتبط بالمعنى الذي أشتق منه هذا الشكل، وهو السمكة))، (عبابنة، ٢٠٠٠، صفحة ٢٣٢)، فشكل السين مشتق من السمكة الذي هو أول حرف منها، ويدل على الحركة والمسير؛ وذلك لأنّ السمكة لا تتوقف عن الحركة والمسير في جوف البحر، وهذا يحاكي الحركة والمسير في

ظلمات الليل، فالليل يسر من دون عائق، والساري يسري من دون عائق بسبب عدم الازدحام في الليل، وإنّ لحذف الياء في يسر أو تقصيرها من غير علة إيحاء لصورة فنية وهي، ((تقييد حركة الليل وجعلها بقدر فلا يطغي على النهار ولا يسبقه))، (السامرائي، ٢٠٠٧، صفحة ٩٨)، أي سريان الليل ليس مستمرًا من دون توقف، وذلك لمجيء النهار بعده.

٢. دلالة الصوائت

بعد التحليل الصوتي لحظنا ظهور الكسرة (ِ) مرتين في المقطع المدروس؛ وهذا مناسب لهبوط الليل المظلم، ذلك لما يستلزم في انتاجها من هبوط الشفة السفلى كما نوهنا في قول أبي الأسود الدؤلي ((إذا كسرت شفتي ...))، يؤيده أيضًا قول الدكتور مكي درار: ((إنّ الكسرة توجد في الجهة السفلى مقابلة للضمة المستعلية في الجهاز النطقي))، (درار، ٢٠١٢، صفحة ١٠٦) هذا وقد ناسب ظهور الكسرة مرتين ذكر الليل مرتين في السورة. أمّا ظهور الفتحة (٣) مرات هنا فهذا يحاكي الارتياح والارتخاء التام الذي يحدث لدى الإنسان في الليل، فهو محط راحته بعد تعب وشقاء في النهار؛ وذلك لما يترتب على النطق بالفتحة من ارتفاع نسبة خروج الهواء طليقًا من دون عائق بالمقارنة مع الكسرة والضم.

وكذلك نلاحظ ظهور الصائت (aa) (ا) في بنية ((إِذَا)) الذي له قمة الاتساع والمد، فلو لفظته لتجد امتدادًا يناسب طول الليل وطول وقته، والأمر نفسه في دلالة الألف في المقطع ((وَلَيالٍ عَشْرٍ)) (الفجر:٢)، فهو يوحي بطول هذه الليالي المباركة واستغلالها في التعبد أيًا كانت مصاديقها عند المفسرين، وفيه إشارة إلى الإعلان عن عظمة هذه الأيام المباركة لما فيه من امتداد للصوت وتميزه بوضوحه السمعي العالي.

ولو تأملنا في تكرار الألف الصائتة في السورة نفسها مرات عدة في قوله تعالى: ((أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ * إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ...)) (الفجر:٦. ١٤)، لنجد أنّ في ذلك إشارة إيحائية بالبعد، أي البعد الزمني بين زمنهم المنطوي وزمن التكلم لما في صوت الألف من المد والتوسع والطول.

٣. دلالة المقاطع:

نلاحظ غلبة المقاطع المفتوحة، إذ جاءت (مص) مرتين، و(م صَ) مرة واحدة، أي(٣) من مجموع (٤)، وعدد المقاطع ونوعها ذو أثر في تحديد الدلالات؛ إذ إنّ المقاطع لها علاقة بالمضامين والانفعالات، وبالتالي فإنّ هذه النسبة العالية تتواشج وطول الليل وعمق الخفاء فيه فضلًا عن النفس الطويل والاسترخاء والراحة كما نوهنا.

المحور الثالث: جرس الراء (دراسة إيحائية صوتية فيزيائية)

كما هو ملاحظ إنّ الفاصلة في الآيات المدروسة قد أُختير لها صوت الراء؛ ولا يخفى إنّ اختيار صوت ما فاصلة لا يخلو من قصد يؤمه الله تعالى فضلًا على الحفاظ على استمرارية جمال الإيقاع الموسيقي الذي تحدثه هذه الفاصلة، فتكون أكثر تأثيرًا في نفس المتلقي، فيكون كأنّه حاضر في المشهد متخيل ما يحدث فيه، إذن هاهنا سؤال: ما السر إذن في اختيار هذا الصوت دون غيره؟ الجواب: في الواقع إنّ اختيار القرآن الكريم لأصوات ذات وقع نغمي ووضوح سمعي فاصلة إنّما لتظهر للسمع حين الوقوف عليها، والراء تحتل المرتبة الثالثة في الفواصل القرآنية بعد الميم والنون، وعدد ورودها في القرآن الكريم كفاصلة (٦٩٠)، أي بنسبة ١١،٠٤ ٠/ مع العلم أنّ عدد آيات القرآن الكريم (٦٢٤٧) آية ... وما ذلك إلا لأنّ نطقها يكون إمّا شفوي أو باعتماد اللسان فتنطق من الجزء الأمامي فيكون وضوحها في السمع أكثر، (نهر، ٢٠١١، صفحة ٢٥٣. ٢٥٦)، وعليه فاختيار الراء فاصلة بما يتميز من وضوح صوتي فيه دلالة إيحائية إلى لفت انتباه الخلق إلى تلك النعم بدليل قسمه تعالى بها، فضلًا عن الإشارة إلى عظمتها بمجيء الاستفهام التقريري بعدها ﴿هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾(الفجر:٥) هذا أعجاز لغوي صوتي أول، وأيضًا تأتي الراء في المرتبة الثالثة من الرنينات في الزمن الذي تستغرقه في انتاجها فهي بعد النون واللام ويليها العين(الصغير، ٢٠٠٨، صفحة ٢٤٨)، وعليه فاستغراقها زمنًا أطول في إنتاجها فيه ملمح إلى الوقوف طويلًا للتأمل في كل نعمة أنعمها الله علينا من التي ذكرت في المقطع، وهذا الإعجاز الصوتي الثاني.

فكيف إذن إذا كان موقوفًا عليه؟ الجواب: ﴿يستغرق الصامت الرنيني عند الموقوف عليه زمنًا أطول من الصامت الرنيني في المواقف الأخرى؛ وذلك بسبب عضوي وهو استعداد أعضاء النطق لإجراء عملية التوقف الكلامي، وما تحتاجه هذه العملية من تقليل تدريجي في

نشاط الأعضاء المشاركة في إنتاج الصوت مما يؤدي الى بطئ في عملية إنتاج الصوت، وسبب آخر سمعي يتمثل في خفوت الصوت الموقوف عليه بسبب الوقف فتعمل الأعضاء على إطالة مدة الصوت لإيضاحه سمعيًا، أي التعويض بالإطالة عن ضعف نشاط الأعضاء ليتضح الصوت سمعيًا، وسبب لغوي يتعلق بالنبر الذي يسير في العربية من الخلف إلى الأمام، ومعلوم أنّ المقطع المنبور يحتاج إلى جهد إضافي وبالتالي فإنّ هذه الإضافة تحتاج إلى زمن لتأديتها)) (الصغير، ٢٠٠٨، صفحة ٢٥٣ . ٢٥٦)، فضلًا عن أنّ مجيء هذه الراء الموقوف عليها مفخمة في هذه المقاطع دليل نضيفه إلى الأدلة المتقدمة التي تشير إلى عظم هذه النعم، ولعله والله العالم إنّ اختيار الراء المكررة فيه إيحاء بتكرار تلك النعم العظيمة واستمرارها وعدم انقطاعها ... وهو أعجاز صوتي ثالث.

المحور الرابع: نظرة كلية للمقطع المدروس

الدراسة الصوتية

((وَالْفَجْرِ * وَلَيالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ))(الفجر: ٤.١)

A	U	i	aa	uu	ii	م ص مقطع قصير	م صَ طويل مفتوح	م ص م طويل مغلق	م صَ م مديد	م ص م م ممتد	ج	هـ
١١	٠	٥	٢	٠	٠	٥	٢	٧	٠	٤	٢٧	٧

أ . دلالة الجهر والهمس

نلحظ في الفونيمات التي يتضمنها المقطع أنّ الأصوات المجهورة أضعاف الأصوات المهموسة فبلغت (٢٧) صوتًا فضلًا عن قوة النون التي في تنوين ((وَلَيالٍ)) ، في حين بلغت الأصوات المهموسة(٧)، فهذه الغلبة الواضحة للمجهورة تشير إلى الجهر والإعلان بهذه النعم العظيمة المقسوم بها (ضوء الصباح، والحركة، والسعي، وتخصيص الليال العشر للتقرب الى الله بالدعاء وضمان الإجابة، وكل ما في الكون من مصاديق الشفع والوتر)، وقد أشرنا الى هذا سابقًا، يؤيده قول سيبويه: ((فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه فمنع النفس أن يجري معه ... وأمّا المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه فجرى النفس معه)) (سيبويه، صفحة ٤٣٤:٤).

ب . دلالة الصوائت:

نلحظ في الدراسة الصوتية للصوائت غلبة (الفتحة)(ـَ)، وكما بيّنا أنّ للفتح صفات كثيرة وإيحاءات أكثر منها، وقد غلبت في هذا الجو فجاءت(١١) مرة أكثر من ضعف الكسرة هذا مع انعدام الضمة، وهذا أمر لافت للنظر إذ تشير فضلًا عن الإشارات التي بيّناها إلى مناسبات الوصف أي تصف بدقة ما يحيط جو الفجر والليل من صفات: (الانفراج، الحركة، النشاط ، الهدوء ، الخفاء، الراحة، الاستقرار النفسي بما تتسم من صفة الاتساع، أمّا الكسرة فقد وجدت (٥مرات) وذلك مناسبة لهبوط الليل والتركيز على ذكره في نصين كما بيّنا، أمّا انعدام الضم، فلعدم مناسبتها للجو بما تستلزمه من توتر وشد.

٣. الدلالة المقطعية

ظهر من خلال الإحصاء الذي قمنا به أنّ نسبة المقاطع المغلقة أكثر من المقاطع المفتوحة، فبلغ عددها (١١) من مجموع (١٨) مقطع، وبما أنّ الحديث يدور حول ثبات هذه النعم ودوامها وعدم انقطاعها فقد ناسب ذلك كثرة المقاطع المغلقة؛ لأنّ الاستقرار والثبات يكون مع الوقف الذي يتمثل مع المقاطع المغلقة، قال سيد قطب: «ففي القرآن ايقاع موسيقي متعدد الألوان يتناسق مع الجو، ويؤدي وظيفية أساسية في البيان» (قطب، ٢٠٠٤، صفحة ١٠١ .١٠٢).

الخاتمة:

بعد الرحلة الماتعة مع إعجاز التشكيلي الصوتي في سورة الفجر توصلنا إلى ما يأتي:

١. إنّ لجرس الصوت أثر في دلالة الكلمة، وبالتالي فإنّ اختيار فونيم ما في بنية معينة دون غيرها لتصوير مشهد معين أو حكايته لا يخلو من قصد يريد تعالى إيصاله إلى المتلقي.

٢. إنّ فونيم (الفاء) في بنية ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بما يتصف من همس يحاكي هدوء الليل السابق لشق ضوء الصباح، ثمّ إنّ هذا الشق والانتقال يحتاج الى شيء من الشدة والقوة يحاكي ضرب الأسنان العليا بشيء من الشدة على الشفة السفلى عند انتاج هذا الصوت، فضلًا عن صفة التفشي فيه الحاكية عن ميل الإنسان لتفريغ همومه في الليل.

٣. إنّ فونيم (الجيم) في البنية نفسها المتصف بالانفجار يحاكي انفجار ضوء الصباح من ظلام الليل الدامس، وإنّ كونه مجهور بتحرك الوترين الصوتين عند النطق به يحاكي حركة الناس ونشاطهم وسعيهم الدؤوب لعملهم عند الصباح.

٤. إنّ دلالة فونيم (السين) على الحركة يرتبط بالمعنى الذي اشتق منه هذا الشكل وهو السمكة، فهي لا تتوقف عن الحركة والمسير في جوف الليل وكذلك الساري يمشي في الليل من دون عائق لعدم وجود الزحام في الليل.

٥. بعد أنّ ذهب ابن سينا الى إنّ فونيم (الراء) من تدحرج كرة على لوح من خشب يمكن القول إنّه يحاكي تدحرج ضوء الصباح، وإنّ صفته التكرارية توحي الى تكرار النعم المذكورة الى ما شاء الله، فضلًا عن أنّ اختيار صوت رنيني غاية في الوضوح السمعي كالراء فاصلة لا يخلو من قصد يؤمه تعالى وهو لفت انتباه الخلق الى هذه النعم العظيمة بدليل القسم بها، فضلًا عن مجيئها مفخمة هو دليل آخر على تعظيمها، هذا وإنّ مجيء هذا الصوت موقوفًا عليه بحسب دراسته فيزيائيًا يحتاج الى وقت كبير في إنتاجه، وهذا فيه إيحاء لنا للوقوف طويلًا للتأمل في هذه النعم المستوجبة شكرًا لامتناهيًا، ولا يخفى أيضًا فضلًا عمّا تقدمّ إنّ مجيء هذا الصوت مفخمًا في فاصلة جميع الآيات المدروسة دليلًا آخر على الإيحاء بعظمة هذه النعم المذكورة.

٦. وجود الصائت الطويل الألف (a) في هذا النص المقدس يحاكي الراحة في الليل بعد شقاء النهار، وتفريخ الهموم والارتياح النفسي، فضلًا عن أنّ وجود في ﴿إذا﴾ يحاكي طول وقت الليل بما يتسم به من الاتساع والمد، كذلك في ﴿وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ يوحي بطول هذه الليالي المباركة واستغلالها بالعبادة.

٧. إنّ ارتفاع ظهور الفتحة (ـَ) في مقطع والفجر يحاكي انتشار ضوء الصباح وارتياح النفس عند إشراقة جديدة ليوم جديد وذلك بما يتصف به هذا الصائت من انتشار واتساع ونفوذ عند النطق به، هذا وإنّ اتصافه بالاستمرارية تحاكي اجتهاد الانسان بالتوسل والدعاء إلى الله تعالى في وقت الفجر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا لفضيلة هذا الوقت عنده تعالى، أمّا الكسرة فظهورها في المقطع الأخير يحاكي هبوط الليل لهبوط الشفتين عند نطقها، فضلًا عن أنّ ورودها مرتين مناسب لذكر الليل مرتين في المقطع المدروس. هذا وإنّ انعدام الضمة في كل المقاطع إنّما لاستلزامها توتر وهذا مخالف لجو الوقتين الواردين في النص كما أثبتنا.

٨. أمّا المقاطع فلها دور في تلوين الخطاب بألوان مختلفة بحسب عددها وأنظمتها من حيث التكرار والإيقاع، قد ظهر لدينا في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ مقاطع طويلة فحسب وهذا يتناسب وطول مرحلة الانتقال من الليل إلى الفجر، وفي مقطع ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾ ظهرت المقاطع المفتوحة وهذا يتناسب مع طول الليل وعمق الخفاء فيه فضلًا عن النفس الطويل والاسترخاء والراحة كما نوهنا. وفي النص المدروس كله غلب ظهور المقاطع المغلقة وهذا يتناسب وثبات هذه النعم الى ما شاء الله تعالى.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم أنيس. (٢٠٠٧م). الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية.

٢. أحمد ابن فارس. (١٩٩٩). معجم مقاييس اللغة (المجلد ٢). (عبد السلام محمد هارون، المحرر) بيروت: لبنان.

٣. أحمد عمر. (٢٠٠٦). دراسة الصوت اللغوي (المجلد ٤). القاهرة: عالم الكتب.

٤. الحسين ابن سينا. (بلا تاريخ). رسالة أسرار حدوث الحروف.

٥. الخليل الفراهيدي. (بلا تاريخ). العين. (المخزومي، و السامرائي، المحررون) دار ومكتبة الهلال.

٦. السيد قطب. (٢٠٠٤). التصوير الفني في القرآن الكريم. القاهرة: دار الشروق.

٧. حسن عباس. (١٩٩٨). خصائص الحروف العربية ومعانيها. منشورات اتحاد الكتاب العربي.

٨. عائشة بنت الشاطئ. (بلا تاريخ). التفسير البياني للقرآن الكريم (المجلد ٨). القاهرة: دار المعارف.

٩. عثمان ابن جني. (بلا تاريخ). الخصائص (المجلد ٤). العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.

١٠. عثمان الداني. (بلا تاريخ). المحكم في نقط المصاحف (المجلد ٢). (عزة حسن، المحرر) دمشق: دار الفكر.

١١. عمر، و مكرم. (١٩٨٨). معجم القراءات القرآنية (المجلد ٢). الكويت: مطبوعات جامعة الكويت.

١٢. عمرو سيبويه. (بلا تاريخ). الكتاب (المجلد ١). بيروت: دار الجيل.

١٣. فاضل السامرائي. (٢٠٠٧). الجملة العربية تأليفها وأقسامها (المجلد ٢). دار الفكر: الأردن.

١٤. كمال بشر. (٢٠٠٠). علم الأصوات. القاهرة: دار غريب.

١٥. محمد الزبيدي. (بلا تاريخ). تاج العروس. (مجموعة من المحققين، المحرر) دار الهداية.

١٦. محمد الصغير. (٢٠٠٨). الخصائص النطقية والفيزيائية للصوامت الرنينية في العربية (المجلد ١). الأردن: عالم الكتب الحديث.

١٧. محمد الطبري. (٢٠٠٠). جامع البيان في تاويل القرآن (المجلد ١). (أحمد محمد شاكر، المحرر) مؤسسة الرسالة.

١٨. محمود الزمخشري. (بلا تاريخ). الكشاف (المجلد ٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٩. مكي درار. (٢٠١٢). هندسة المستويات اللسانية من المصادر العربية (المجلد ١). الأردن: عالم الكتاب الحديث.

٢٠. ناصيف جرجس. (٢٠٠٦). معجم الأصوات (المجلد ١). لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

٢١. هادي نهر. (٢٠١١). علم الأصوات النطقي (المجلد ١). الأردن: عالم الكتب الحديث.

٢٢. يحيى عبابنة. (٢٠٠٠). دراسة في فقه اللغة والفونولوجيا الحديثة (المجلد ١). الأردن: دار الشروق.